جدل"المتخيّل الاستشراقي" في الخطابات النّسويّة العربيّة المعاصرة

– فاطمة المرنيسي أنموذجا–

أ– نزيهة لعرافة

جامعة باتنة 1

الملخّص:

لعلّ "المتخيَّل" بما يحيل عليه من كونه إطارا مرجعيّا لهويّة المجتمع الثقافيّة –دلالة أهميّة–، قد وجد– بوصفه مرجعا فكريا– في أدبيّات الاستشراق وسيطا تمثيليا سلبيا؛ عمل على نقل الشّرق إلى مجال المعرفة الغربيّة عبر تصوّرات وهميّة حرّكها خيال رومانسي استشراقي، صوّر الشّرق "يوتوبيا جاذبة تستحق المغامرة".

ولأنّ العلاقات الكولونياليّة بطبيعتها "تستتبع انفلاتا للمشاعر الجنسيّة"، فقد صور "المتخيَّل الاستشراقي" حريم الشّرق "فردوسا ذكوريّا مفقودا"؛ ومن ثمة يمكن تصوّر وضع "الحريم" ضمن فلسفة السّياق الاستعماري الذي يمثّل أقوى تجسيد للفلسفة الذّكوريّة؟

إلى هنا تصبح "الكتابة النسويةّ العربيّة" طرفا في حرب تحديد من سيتخيّل الآخر، ومن ثمّة انخرطت "فاطمة المرنيسي"– ضمن كتابة نسويّة مابعد استعماريّة – في مشاريع مراجعة تاريخية تفصح بوضوح عن مقاومة أبنية وخطابات المعرفة الغربيّة عن امرأة الشّرق، وشكّلت ثيمة/الحريم في كتاباتها مرتكزا لتقويض نمطيّة السّرد التّمثيلي المتعلّق بالمفهوم الغربيّ عن المرأة العربيّة؛ وفق وضع حريمي معكوس، خلاف استقراره في الخطاب الاستشراقي.

تسعى هذه الورقة للوقوف عند النّسوية العربيّة ممثّلة في "فاطمة المرنيسي"، وتناولها نقد الخطاب الاستشراقي حول المرأة العربيّة، ضمن مؤلفاتها، فماهي الآليات التي تبنّتها المرنيسي في نقدها للمتخيّل الاستشراقي، وتفكيك خطاباته؟

الكلمات المفتاحيّة: الاستشراق، المتخيّل الاستشراقي، التّمثيل، الحريم، الغرب، النّسويّة.

Abstract:

Perhaps the "imagined orient" as a frame of reference for the cultural identity of society found a negative representing mediator in oriental literatures, which strived to transfer the orient to the domain of western knowledge through imaginary conceptions moved by a romantic oriental imagination which pictured the orient as "an attractive utopia worth of adventure." As colonial relations, by nature, tend towards an escape from sexual feelings, the "imagined orient" depicts the orient Harem as "a lost masculine paradise". Hence, the situation of the harem may be seen within the philosophy of colonial context which is considered the strongest materialization of masculine philosophy.

Here the Arabic feminist writing becomes part of a war which tries to determine who is going to imagine the other. Thus, Fatima Mernissi adhered to a project of historical revision-within the context of post-colonial feminism- which shows clearly a resistance to western structures and discourses on Arab women, according to an inverse harem situation, contrary to its stability in oriental discourse.

The present paper is an attempt to examine the Arabic feminism represented in the works of"Fatima El-Merssini" who dealt with the oriental discourse about the Arab woman, in her writings. So what are the devices she adopted to criticize the imagined orient and to deconstruct its discourses.

Keywords: Orientalism, the imagined orient, representation, harem, the West, feminism.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

المقدّمة:

لقد حظي موضوع "المتخيّل الاستشراقيّ"، باهتمام بالغ ضمن خريطة الانشغالات العلميّة والأكاديميّة، وتوزعت دراسته، والبحث فيه بين حقول نظريّات "النّقد الثّقافي"، و"دراسات التّابع"، و"نظريّة النّقد النّسويّ"... وغيرها من النّظريّات، والسّياقات، التي تشكّلت ضمن العلاقات الثّقافيّة والحضاريّة بين الأمم، وخاصّة العلاقة شرق/غرب، التي لم تزل تلقي بظلالها على المشهد الثّقافي الإنسانيّ.

لقد تشابك ضمن آليات المنظومة الاستشراقيّة، مفهوما "التّخييل"، والتّمثيل"، الأوّل بوصفه مختلف الخلفيّات والمرجعيّات المتوّهمة، ذات الكثافة الدّلاليّة، والرّمزيّة التي تشكّلت في المخيال الغربيّ عن الشّرق، والثّاني "التّمثيل"؛ كونه الجهاز الذي يحبك، ويصوغ تلك المرجعيات في تجليّات خطابيّة ارتسمت في تضاعيف التّمثيليّة السّرديّة الاستشراقيّة.

لقد تبلورت النّسويّة العربيّة ضمن جدليّة الصّراع شرق/غرب، لكونها معنيّة بزحزحة العلاقات النّمطيّة التي فرضتها التّمثيليّة الغربيّة، ونهضت النّسويّة العربيّة بجهد حثيث لمساءلتها، عبر تقويض دعامات البنيات الاجتماعية، التي أفرزتها ثقافة الرّجل/ المركز.

وهو الجهد الذي انخرطت فيه "فاطمة المرنيسي"، من خلال كتاباتها التي تمحورت حول تيمة/الحريم، هذا المفهوم الكولونيالي الاختزاليّ للشّرق، والذي تتبّعت المرنيسي بنيته الذّهنية عبر حفريّات المرجع والتّاريخ، والكيفيّة التي تشكّل بها في المخيال الغربيّ، الذي صادرها في الحيز الخاص بالمتع وما يتصل بها، فمهما كانت جارية أو أمَة أو غانية، أو محظية، فإنها مندرجة في تقديم المتعة للرجل، وندر أن جرى الاهتمام بها خارج هذه الوظيفة النّمطية التي عملت "المرنيسيّ" على مراجعتها بإنتاج الحريم وفق دلالات متعدّدة، أخرجت بها الحريم من قوالبه الجامدة حيث المرأة الخاملة، الصّامتة، المستلقية في هدوء مريب، نحو ديناميكيّة المساهمة في جميع مناحي حياة المجتمعات، وذلك من خلال عقد المقارنات بين حريم الشّرق/ حريم الغرب، حريم إمبراطوريّ/ حريم عائليّ، حريم واقعيّ/ حريم متوهّم، لعلّها بذلك تستعيد لازمة ثنائيّة الشّرق/ الغرب الجدليّة؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

1/ الاستشراق بين التّخييل والتّمثيل:

من أهمّ المفاهيم والمصطلحات التي تمتدّ على مختلف ميادين العلوم الإنسانيّة (الفلسفيّة، والنّفسيّة والاجتماعيّة، والأدبيّة، والثّقافيّة، والأنثروبولوجيّة...) مفهوم "المتخيّل"، أو "الخيال"، أو "التّخييل"... الذي يرتبط بواحدة من أكثر مقدرات الإنسان غموضا، ألا وهو العقل الذي يعتبر أساس تشكّل المعرفة لدى الإنسان وتمتدّ دراسة المخيال إلى البدايات الأولى للفلسفة مع أفلاطون، وأرسطو من خلال أبحاث ملكات النفس، حيث كان يطلق عليها لفظة المخيّلة بوصفها آلة ترتبط بكلّ من المصوّرة والإدراك الحسّي[1]، وتمتاز بقوّة استعادة تتفاوت فيها صدقا وكذبا؛ فقد عرّف الفارابي المتخيّل قائلا: "ثم يحدث في الإنسان بعد ذلك الإحساس قوة أخرى بها يحفظ ما ارتسم في نفسه من المحسوسات بعد غيبتها عن مشاهدة الحواس لها وهذه هي القوة المتخيّلة، فهذه تركّب المحسوسات بعضها إلى بعض وتفصل بعضها عن بعض تركيبات وتفصيلات مختلفة بعضها كاذب وبعضها صادق"[2]؛ فالقول المتخيّل، لأنه متخيّل، يبعث على الفعل والتّرك، ولسان حال القول التّخييلي: مادام الأمر كما أخبرك به فوجب أن تفعل كذا ولا تفعل كذا، والأمر ليس كما يخبر به بل كما تخيّله.[3]، بل كما توهّمه؛ حيث ينبئ تتبّع مسار المتخيّل* عن قرينة الوهم التي طبعت جلّ التّعاريف في مختلف التّخصّصات عنه، والتي من جملتها تعريف "ابن سينا" يقول فيه: "وتخدم الوهم قوة راجعة لها أن تركّب، وتفصل ما يليها من الصّور المأخوذة من الحسّ والمعاني المدركة بالوهم، وتركّب أيضا الصّورة بالمعاني، وتفصلها عنها وتسمى عند استعمال الوهم متخيّلة"[4]

أمّا في الدّراسات الثّقافيّة، فيرتبط المتخيّل بشبكة من القيم، والرّموز، والمعتقدات، والصّور... التي تشكّل مجتمعة ذاكرة شعب، وتختزن موروثات أمّة، ومن ثمّة كان الانتباه لفعل التّخييل في علاقته بالمجتمعات؛ إذ يعتقد "كاستورياديس" Cornelius Castoriadis: "بأنّ للمتخيّل بعدين؛ فهو مكوِّن ومكوَّن في الوقت ذاته، مؤسِّس ومؤسَّس في آن واحد"، فهو مكوِّن لهوية المجتمع، بحيث يصحّ قول كاستورياديس، بأنّ المجتمع مؤسّس على المتخيّل وقائم به، كما أنّه مكوَّن؛ لأنّه يتشكّل في مجتمع وبفعل مرجعيات وسياقات تاريخيّة متعدّدة ومتداخلة.[5]

لعلّ هذا المهاد – المقتضب- يؤسّس للعلاقة التي نبحث في جدليّتها، عن الارتباط العضويّ، بين المتخيّل والمنظومة الاستشراقيّة، وتمثيلاتها الأدبيّة، التي صَنَّفتْ حالمةً ملامح شرق "متخيّل"، مفارق للواقع، شرق رومانسيّ شبقيّ، بنكهة العجائبيّة، شرق تُكسَر به الحياة الغربيّة الرتيبة، ويتمظهر إنسانه خاملا، عاجزا، ينتظر فارسا أبيضا يخلّصه من وحشيّته، وينعم عليه من وافر القيم الوحدويّة الشّموليّة، أو يحيله مسخا بلا هويّة؟

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

يعتبر التّمثيل من أهم المفاهيم الدّارجة في الدّراسات الثّقافيّة، للدّور الذي يضطّلع به في صوغ المرجعيّات الثّقافيّة، وباعتباره الوعاء الحامل لتداعيات المخيّلة؛ لعلّ ذلك ما يصدق في حالة التّمثيل الاستشراقي لعالم الشّرق وشخوصه؛ إذ أنّ تمثيل الثقافات والحضارات الواقعة شرق الغرب، التي جاء الاستشراق ليدلّل عليها، يرتكز إلى جهل مصنوع؛ أي أن تلك التّمثيلات قد جرى اختراعها وتلفيقها عن عمد وسابق إصرار – كما جرى تصنيعها كأدوات لـ (احتواء) هذه الثقافات والحضارات و(إخضاعها)[6]؛ فقد فطن الغرب لواحدة من أكثر تلك الأدوات فاعليّة في صوغ المخيال الغربيّ، متمثّلة في ظاهرة "التّمثيل السّرديّ"، الذي يعتبر القالب الذي يشكّل المخيال الغربي، ويتشكّل من خلاله، في عمليّة تبادل أدوار معقّدة؛ وبهذا المعنى يتداخل التّمثيل بالخيال بما هو طريقة في الرّؤية تتجاوز الإطار الحسّي المباشر، إلى ماله علاقة بالوجود في عالم الأذهان. والتّمثيل وفق هذا التّصور"ليس مشروطا بقيام المدركات في حالتي الحضور والغيبة، وإنّما يتعدّاها إلى عوالم التّوهّم والرّؤيا وما يدانيهما".[7]

يمكن فهم هذا الارتباط العضويّ بين التّخييل والتّمثيل سرديّا، بالإحالات المتعدّدة التي يقيمها العمل الإبداعي بالمرجعيّة؛ فالكاتب عندما يقوم بتمثيل موضوعه، فهو يحتمي أيضا بالمخيّلة من أجل إعطاء موضوعه الكثافة الدّلاليّة والرّمزية التي يتطلّبها. وهذا ما قصده أرسطو عندما تحدّث عن المحاكاة؛... إنّما كان يدرك أن الأمر يتعلّق بالمحاكاة المبدعة التي تحتفي بالخيال..." [8]

لقد استند التّمثيل الاستشراقيّ في تسويق صوره النّمطيّة عن الشّرق، إلى هيمنة الثّقافة التي خلقها سياق استعماريّ، حمل على تصديق "الكذبة العذبة"، تحت وطأة قوّة المؤسّسة؛ وهذا بالتّحديد ما أشار إليه الباحث عبد النّبيّ ذاكر في سياق اشتغاله على الرّحلة حين اعتبر "أنّ التّمثيليّة لا يمكن أن تتملّص أو تنفلت من لحظتها التّاريخيّة ومناخها السوسيوثقافي الذي يحكمها ويلوّنها ويؤدلجها، لذا لا يمكنها إلا أن تكون محدودة كمّا وقابلة للتّصنيف والتّقييء، مادامت تنبثق من توجّه أيديولوجي معيّن ومن خليط معقّد من الأفكار والمشاعر القابلة للمعاينة تاريخيّا، ونخصّ هنا بالذكر تمثيليّة الأجنبي".[9].

لم تكن الآلة التّخييليّة الاستشراقيّة تعمل بمعزل عن خلفيّة توسّعيّة استعماريّة استثمرت في المخيّلة الغربيّة عبر تسويق وهم حالم، فغذّت أدبيّات المنظومة ذلك المخيال الغربيّ بكلّ ما من شأنه حمل شعوبها على قبول مغامرة غامضة مندفعة تحت وطأة التّحفيز الجنسيّ، والشّرق السّحريّ، مكمن ملذّات لا محدودة، يكسر بها الغربيّ حياة الرّتابة والملل، ليغدو الشّرق وفق هذه الدّعاية مطمح ما بعده مطمح؛ حيث أنزل الخيال الرّومانسيّ الحملة الفرنسيّة منزلة الفعل الفرديّ ليظلّ تألّق عمله التّاريخي في أفق شرقيّ خامل، لكنّه عجيب، وقد وجد الدّمج

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

المتقصّد بين الخمول والعجائبيّة، أفضل تجلّياته فيما ورثته الحملة من أدبيات خاصّة بها في الثّقافتين الغربيّة والعربيّة، وفي مقدّمتها كتاب "وصف مصر"، الذي أظهر البلاد المصريّة على أنّها "يوتوبيا" جاذبة تستحقّ المغامرة، كما توصّل "تروني كر" إلى ذلك.[10]

ظلّ المخيال الشّعبيّ الغربيّ قابعا تحت تمثيلات موروثة عن تراث أسّس لذاته وفق نظريّة صراع الحضارات، التي رسمت حدودا وهميّة، صنّفت من خلالها الأمم، وصيرت المختلف كائنا دون البشر، وهو ما دفع "محمد أسد" للتّساؤل قائلا: "هل يمكن أن تكون طريقة التّفكير اليونانية- الرّومانية القديمة التي قسمت العالم إلى يونانيين ورومانيين من جهة، وبرابرة من جهة أخرى، لا تزال مكينة في الفكر الغربي إلى درجة أنها لم تستطع أن تقبل، ولو نظريّا، بالقيم الإيجابية لأي شيء يقع خارج مدارها الثّقافي الخاصّ؟".[11]

يبدو هذا التّساؤل منطقيّا بالرّجوع مرّة أخرى لظاهرة التّمثيل السّردي الاستشراقيّ، الذي نجده ماثلا في صورة الرّواية الغربيّة الحديثة التي عكست تطلّعات الإمبراطوريّة، وبدت وفيّة لمبدأ رسم الحدود بين صنفين من البشر؛ ففيما يخصّ الذّات أنتج التّمثيل السّرديّ ذاتا حيويّة وخيّرة وفاعلة وشريفة، وبذلك ضخّ جملة من المعاني الأخلاقيّة على كلّ الأفعال الخاصّة بها... وفيما يخصّ الطرف الآخر أنتج التّمثيل السّرديّ "آخر"يشوبه الانفعال والجهل والتّوحّش، وغياب الفاعليّة، وانعدام الشّرف. ومثاله العالم المبهم للملونّين من آكلي لحوم البشر، وقد ظهرت أطياف مشوّهة لصورهم، وبذلك جرى إقصاء كلّ المعاني الأخلاقيّة عنهم"[12]؛ وبحسب "خوان غويتسلو" فإنّ "نصوص ماركس Marx وإنجلز Friedrich Engels حول ما يدعى اليوم "العالم الثالث" مشبعة بالفعل بصور نمطيّة صنعها المستشرقون الفرنسيّون". وماركس يقول: إنّ الشّرقيين عاجزون عن تمثيل أنفسهم، ينبغي أن يمثّلوا".[13] ووفق هذا الشّعور بمسؤوليّة "الرّجل الأبيض" وجدنا التّمثيل الاستشراقيّ يطاول الذّات العربيّة، المرأة خاصّة، في بحث ذكوريّ محموم عن عالم الشّبق، والنّزوة المستحيلة شرقا، والمتاحة تخييلا ليُفسَح رباط المخيال الغربيّ، ويفتح له المجال لأن يعيش أحلامه المكبوتة، هاربا، أو متجاوزا لحدود الواقع، نحو خيالات غذّتها منظومة التّمثيل الاستشراقيّ، من قبيل هذا التّوصيف لـ"سفاري": "...في هذه الحدائق نجد أيضا فتيات من جورجيا قام آباؤهنّ المتوحشّون ببيعهنّ كإماء وقد خلعن الحجاب الذي يضفي عليهنّ الاحتشام المراعى في العلانية، وحين تكون هؤلاء الفتيات متحرّرات من كلّ إكراه، فإنّهنّ يرقصن أمامهم (الرجال الأتراك) رقصات خليعة، ويغنّين ألحانا عذبة..."[14] وهي الأوصاف التي تقفز إلى ذهن المتلقي الغربي بمجرد سماعه للفظة الشرق؛ حيث يمكن اعتبار "الإيحاء" النّيمة الأبرز في طريقة تعامل الفنّ الغربي مع الجسد بشكل عام، والجسد الأنثوي بشكل خاصّ.[15]؛ فقد

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

انشغل أشخاص مثل موباسان وأندريه جيد André Gide وجوته Johann Wolfgang Goethe، وفلوبير Gustave Flaubert، ولامارتين Alphonse de Lamartine وفيكتور هوجو Victor Hugo، بالمرأة الشرقية والأوصاف الحسيّة، والمغامرات الجنسيّة والكيفيّة التي استثمروا بها هذه الأفكار، وزجوا بها داخل الوعي الغربي" تلك الأفكار التي أضحت جزءا من النظرة الأوروبية الشاملة حول آسيا وأفريقيا، التي لعب الجنس دورا فاعلا فيها".[16] فصوّرت المرأة في هيئة جسد خال من الفعالية مسجّى على الأرض، طريحا على الفراش، معروضا للمشاهدة والتخيّل، هذا الجسد تتكرر مرادفاته في امرأة شهية لدنة رخوة عند تزولوب في السينيورا نيروبي مثلا... الشرق نفسه يختزل في مثل هذا الجسد.[17]

لقد اُختُرِعت أساطير عديدة حول المرأة الشّرقيّة، لعلّ علّة ذلك ما اختزنه المخيال الغربيّ عن نموذجه الذّكوريّ الذي ورثّته إيّاه فلسفة اليونان، وإمبراطوريّة الرّومان، وكهنوت كنيسة العصور الوسطى؛ ذلك أنّ السّائد في مسألة هيمنة الذّكر أو البطريركية في المجتمعات الميتروبوليتيّة... يضاف إلى ذلك أن الشّرقيات مثل الخادمات في العصر الفيكتوري، كنّ ملزمات بالصّمت بقدر إلزامهن بالولادة الخصبة غير المحدودة".[18]

هذا ما اشتغلت عليه التّصنيفات الاستشراقيّة، باختزالها الحريم الشّرقيّ، في الصّور الرّغبويّة المثيرة، لتتجاوز كل الدّلالات، والمعاني التي يمكن استقراؤها وفق المورفولوجيّة الاجتماعيّة التي طبعت الحريم في بيئة شرقيّة حقيقيّة وليس كما توهّمه الرّسامون، وتلصّصه المتلصّصون؛ فالحريم لفظيا يجمع بين دلالتين: النساء والحرام، ليكوّن معنى مركّبا هو: النّساء المحرّمات. ولكن النّساء المحرّمات على الرّجال "الآخرين" لسن بالضّرورة منتميات أو مملوكات لرجل...، وأنّ لفظة "الحريم" لا تشير بالضرورة إلى مجموعة نساء، بل يمكن أن تطلق على المرأة الواحدة، وهي الزّوجة بالذّات – التي لا تثير المستشرقين– ولكنّها تطلق على الأمة / المملوكة / الجاريّة إلّا إذا دخلت مع الزوجة في الانتماء إلى الرّجل، أو كن مجموعة إماء لا واحدة، ومصطلح "الجارية" نفسه لا يتعلّق بالأمة دائما... فهو يدلّ أيضا على الفتية من النّساء".[19] ما يدفع للبحث عن مصادر التّمثيلات الاستشراقيّة، ويعزّز أطروحة الوهم التي رافقت المخيال الغربيّ في نسج متخيّل عن الشّرق.

لا نودّ أن نسرد لمفهوم الحريم ونظامه في المفهوم الإسلامي، فهذا لا يستوعبه البحث، بقدر ما نريد الكشف عن الاختزاليّة التي طالت مفهوم "الحريم" في خطابات المعرفة الاستشراقيّة، والتي تحيل الوعي الغربيّ مساءلا من النّسويّة العربيّة في سياق ما بعد الاستعمار.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

2/ النسوية العربيّة في سياق ما بعد الاستعمار:

يستدعي الحديث عن النّسويّة، كحركة، وفكر، وأدب، وممارسة ثقافية... التّعريج على السّياقات والمرجعيات التي شكّلت المفهوم، وأخرجت الأنوثة من طبيعتها البيولوجيّة، وحشرها في طبيعتها الثّقافيّة، ومن ثمّة حمل هذه الحركة على البروز إلى ساحة النّقاش النّقدي والثّقافي؛ فقد أجادت النّسويّة الجديدة تمثّل وتمثيل لحظتها التّاريخيّة، أو موقفها الحضاري، موقف ما بعد الحداثة وهو الرّجل الأبيض، صانع العلم والحضارة جميعا، وبروز الآخر، أي النّساء والشّعوب التي كانت مستعمرة، والثقافات غير الأوروبية، كأطراف ذات أهلية وحق كامل للمشاركة في صنع الحضارة.[20] وهو المعنى الذي تروم هذه المقاربة الكشف عنه، من خلال علاقة النّسويّة العربيّة بسياقات ما بعد الكولونياليّة التي أفادت منها، وانخرطت ضمن استراتيجيّاتها الرّامية لمراجعة خطابات المعرفة الغربيّة، في شقّها الاستشراقيّ، الذي يرتبط عضويّا مع المنظومة الاستعماريّة.

لكن قبل هذا ينبغي التّفريق بين كتابة النّساء، والكتابة النّسويّة؛ فالأولى كتابة يترتّب شأنها بمنأى عن فرضيّة الرّؤية الأنثويّة للعالم وللذّات إلّا بما يتسرّب منها دون قصد مسبق، وقد تماثل كتابة الرّجال في الموضوعات والقضايا العامة لأنها تتعرض لشؤون لا تخصّ المرأة وحدها إنّما تخصّ العالم المحيط بها، أمّا الثّانية فتتقصّد التّعبير عن حال المرأة استنادا إلى تلك الرّؤية في معاينتها للذّات وللعالم، ثمّ الاهتمام بنقد الثّقافية الأبوية السّائدة لأنها قاهرة للمرأة في اختياراتها الكبرى... يتمّ كلّ ذلك في إطار الفكر النّسوي، ويستفيد من فرضيّاته، وتصوّراته، ومقولاته.[21]؛ ومن ثمّة نجد النّسويّة تتشكّل وفق مقاربة مناهضة للذّكورة أساسا، حيث عمدت هذه الأخيرة ضمن أدبيّاتها إلى تصوير المرأة بأشكال منمّطة، اقترنت فيها بصفات الضّعف، والخور، والدّونية، والتّبعيّة، وغيرها من المصادرات التي حاولت الذّكوريّة بها وضع المرأة على الهامش؛ لتغدو المرأة في ظل النموذج الثّقافي الأبوي، تصبح المرأة هي كل ما لا يميز الرجل، أو كل ما لا يرضاه لنفسه، فالرجل يمتاز بالقوة، والمرأة بالضعف، ويتصف الرجل بالعقلانية، والمرأة بالعاطفة، ويتسم الرجل بالإيجابيّة، والمرأة بالسّلبيّة...الخ، ومن هنا يمكن القول بأنّ النّسوية هي حركة تعمل على تغيير هذه الأوضاع لتحقيق تلك المساواة الغائبة بين المرأة والرجل،[22] وتأسيس علاقة ندّيّة قائمة على مبدأ الشّراكة لا التّبعيّة، واحترام دور المرأة الاجتماعيّ بوصفها فاعلا مساهما في كلّ مناحي الحياة العامّة بشؤونها الثّقافيّة، والاقتصاديّة، والسّياسيّة.

لقد استفادت النّسويّة من نظرية التّابع التي تندرج ضمن دراسات ما بعد الاستعمار، الذي يعدّ أقوى وجه للفلسفة الذّكوريّة الغربيّة؛ فقد مارس الاستعمار على المرأة في الأقاليم المستعمرة صنوفا من التّمثيلات التي أحالتها

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

خلقا آخر مشوّها؛ فكانت فلسفة المرأة، بقدر ما هي فلسفة للبيئة، بقدر ما هي فلسفة لتحرير الثّقافات والقوميات، وشعوب العالم الثالث، من نير الاستعمار والمركزية. وهي في كل هذا فلسفة بعد حداثية، رافضة لقيم الحداثة والتّنوير الاستعمارية، من حيث هي فلسفة ما بعد استعمارية.[23] حاولت المرأة العربيّة مستفيدة من طروحاتها، الخروج من قيود فرضت عليها، ومن عبء تاريخ أثقل كاهلها، ومن تمثيليّة اختزلتها في الوعي الذّكوريّ بوصفها غرضا شبقيّا... ومن ثمّة أدركت النّسويّة العربيّة أنّ عليها عملا ما يجب القيام به لأجل استرداد قيمتها، وترميم هويّتها، فانخرطت ضمن استرتيجيّة ما بعد الكولونياليّة، وتمظهر خطابها "من هذا المنطلق بصفة الدّفاع عن الأنا الأنثوية، بما هي ذات لها هويتها المجتمعيّة، والإنسانية، وبالتالي له صفة المواجهة لخطاب آخر شرّع، ويشرع قمعها، وحرمانها، وتأييد امتلاك الآخر السّلطوي لها، وسيطرته عليها"[24] فانتهجت مقاربة تفكيكيّة للبنى والخطابات المعرفيّة، ومن ثمّة إعادة بناء بنيات أكثر تعبيرا عن الحقيقة، وبعيدة عن سوء التمثيل المقصود الذي كرّسه وعي ذكوريّ استشراقيّ، عملت النّسويّة العربيّة على تقويضه، وفق مقاربة قائمة على تفكيك الذّهنيّة لا على التّمايز الجنسي، فـ" النّسائي" في الخطاب الأدبي العربي، يضمر معنى الدفاع عن الأنا الأنثوية بما هي ذات لها هويّتها المجتمعية والإنسانية. ومن موقع الندية، يواجه "النسائي" لا الرّجل بصفته الإنسانية، بل آخر هو تاريخيّا، قامع ومتسلط"[25]، وهو هنا بوجهه الاستشراقيّ، الذي يتمظهر بصفة خاصة في كتابات الرّحالة، والرّوائيين حيث نجد أنّ المرأة عادة ما تكون كائنا خلقته، أوهام السلطة، وخيالاتها عند الرّجل، إذ تعبّر المرأة عن نزوع غير محدود للملذات الحسية، وهي تتسم بالغباء على نحو ما... "[26] فمجرد ذكر الشّرق أمام الغربيين يقفز في أذهانهم أنه مرتع الشهوات والملذّات، وبمجرّد لفظ كلمة "حريم"، يتبادر إلى أذهانهم ذلك المخلوق الخامل العاجز، القابع خارج دائرة عجلة التّاريخ، فالمرأة في التّراث الغربيّ، لا يصلح لحالها الخروج عن المألوف، بمحاولة في مساهمة علميّة، أو سياسيّة، أو اقتصادية في مجتمعها، بل يلزمها، أن تمتثل للحدود التي رسمت لها؛ فقد ارتبط تدمير ما تبقى من مكتبة الإسكندريّة التّاريخيّة المشهورة، القرن الرّابع الميلادي بهيجان قطيعي مسعور قاده رئيس أساقفة المدينة "سيريل" ضدّ امراة تدعى "هيباتيا ولدت عام (370م)، في الوقت الذي لم تكن توجد به إلا خيارات قليلة للنساء، وكنّ يعاملن باعتبارهنّ مقتنيات".[27]

لقد سعى التمثيل السّلبي لامرأة الشّرق، على إنتاجها وفق إخراج مشوّه، لم تعدم خلاله المنظومة الاستشراقيّة وسيلة، ولا حيلة في ذلك؛ "فالاستشراق بوصفه مؤسسة مشتركة تتضمن تقليدا للبحث والدراسة، وإطارا من التحليل متبعا في علم اللاهوت، والفلسفة، وعلم الاجتماع، وتقنيات التّمثيل، وأساليب القصّ وكتابة الرحلة وصيغ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

التعبير عن القوة والمعرفة... إنّ الاستشراق يتغذى بأسباب الحياة من خلال استهلاك عشق "الكذبة العذبة الفاتنة".[28] هذه الكذبة التي نمطّت المرأة العربية مرتمية بين الوسائد الحريرية شبه عارية، متمرّسة في فنون الإغواء، وألوان الإغراء، وهي التيمة/ الموضوع الفني الأشهر الذي حفلت به لوحات المستشرقين، والتي كشفت تورّط الوعي الغربيّ في خلق واختراع وهم "الحرم"، لا الحقيقة الواقعيّة وإنما بحسب حاجة الغرب الرّغبويّة الشّبقيّة وبخلفيّات غير معلنة (سياسيّة، وثقافيّة، واقتصاديّة، وعسكريّة)؛ وهو ما يمكن الوقوف عليه من خلال أمثلة عديدة؛ فالرسام "أنطوان جان جيرو Antoine " (1771-1835م)، مهّد للاستشراق الفنّي برغم أنه لم ير مصرًا بتوجيهات وأغراض دعائية، مثل "جيرو" كما العديد غيره، لعب دورهم" الأيديولوجي على الفنّي" فكانوا يخدمون سياسة "بونابرت ويمجدون أسطورته"[29]

3/ تمظهرات تيمة/الحريم في سرديّات المرنيسي:

إنّ الحديث عن تيمة الحريم الشّرقيّ ضمن العلاقات شرق/غرب، لا بدّ وأن يمرّ عبر ذكر اسم "فاطمة المرنيسي" لاقتران اسمها بهذا المفهوم الذي حفرت فيه بحثا وتنقيبا، وتعقيبا، وتفكيكا، مستفيدة من النّسويّة ومفاهيمها، ومن دراسات التّابع وسياقاتها، ومستندة لتراث تعتريه شوائب ذكوريّة مستوردة، فكانت صوتا نسائيّا عكس إسهام الأنثى في تشكيل الظاهرة الأدبيّة في المشهد الثّقافي العربيّ، من خلال أعمالها التي تمظهررت في أغلبها سيرا ذاتيّة للكاتبة، مثل "أحلام النّساء الحريم حكايات طفولة في الحريم"، أو في مؤلّفها "شهرزاد ترحل إلى الغرب"، أو "نساء على أجنحة الحلم"... وغيرها من الأعمال المتفاوتة بين "السيرة الرّوائيّة"، و"الرّواية السّيرة"، أو "التّشكيل السّيرذاتي الذّاكراتي"، وهي في ذلك لم تكسر تقليدا أدبيّا نسويّا؛ حيث يمكن "اعتبار السّيرة النّسوية للمرأة هي المحور الذي دارت حوله كثير من الأعمال السرديّة النّسويّة، إذ تكتسب الأحداث أو تفقد قيمتها بمقدار صلتها بالمرأة، وليس لأنها مهمة في العالم، وشخصية المرأة هي المانح، أو الحاجب للأدوار الأخرى التي لا تظهر إلا من أجل استكمال جزء في شخصية المرأة أو انتزاعه".[30] كما لم تحد "المرنيسي" عن تطلّعات النّسويّة العربيّة منها خصوصا، فطرقت المواضيع الأساسيّة التي تمحور حولها الهمّ النّسوي مابعد الكولونياليّ، إذ تعتبر "إيلين شوالتر Elaine Showalter ": "أن كتابات المرأة تشبه الكتابات النّابعة من أيّة ثقافة أخرى تابعة، فهي تمرّ بثلاث مراحل من التّطوّر المتعاقب"محاكاة الأشكال السّائدة للتّقاليد الأدبيّة المهيمنة"، و"الاعتراض على هذه المعايير والقيم"، واكتشاف الذّات"؛ أي "البحث عن الهوية".[31] متسلّحة بتقانة التّفكيك وفق نظام الثّنائيّة "الدّريدي".

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

لقد سعت المرنيسي ضمن مقارباتها لإعادة تعريف "الحريم" من خلال تكوين فكرة أكثر تكاملا حول هذه التّيمة/الموضوع، فعقدت مقارنات حول الحريم في الشّرق والحريم في الغرب، وحاولت تتبّع شبكة المفاهيم المرتبطة به، وقد أنتجت المرنيسي الحريم وفق دلالات متعدّدة، عكست بها الدّيناميكيّة التي يختزنها هذا المفهوم، فيما انفتحت على آفاق واسعة فيما يخصّ قضية المرأة في المجتمع التقليدي، إذ تلحّ على الفكرة الملحّة حول كيفية الاندماج الطبيعي في عالم يقوم بتحديث نفسه، لكنه منشطر بين غرب يسعى لتحويل التحديث إلى عمل مستحيل، من خلال تمزيق الأنساق التقليدية للعلاقات الاجتماعية التي لا بد لكل تحديث أن يقوم بتفكيكها ومجتمع ذكوري يتعمّد إقصاء نصفه كعورة فاضحة، قاصرة، ومبتورة، ومطمورة، ولكنه نصف مثير للشبق والرغبة وهو قطاع النساء.[32]

4/ حريم الشّرق/حريم الغرب:

تعقد المرنيسي في مؤلّفاتها التي أعادت من خلالها تعريف تيمة "الحريم"، مقارنة بين حريم الشّرق، وحريم الغرب؛ فيما تفتتح فصلا أفردته في مؤلّفها "شهرزاد ترحل إلى الغرب" بسؤال: الغرب والشّرق هل من علاقة بين الحريمين؟[33]؛ فحريم الأدبيّات الاستشراقيّة، وحريم الإمبراطوريّات الغربيّة، حريم تمظهر في المخيال الغربيّ مفارقا لواقع شّرقيّ تجاوز فيه الوعي الغربيّ كل مظهر عدا ما ينسجم مع مخيّلة، مندفعة تحت وطأة الوهم الشّبقيّة والاستيهامات السّاديّة، التي نسجت ضروبا من الأساطير عن المرأة الشّرقيّة، عمدت المرنيسي في ذلك مساءلة هذا التّمثيل الغربيّ عن حقيقة ما أسطر له؛ فحريم المرنيسي الشّرقيّ حريم مختلف، حريم واقعيّ عرف من المزايا والحقوق، ما لم تعهده حضارة قبل الإسلام؛ "إن الغربيين لا يختزنون في أذهانهم إلّا أشكال حريم تكونت انطلاقا من الصّور التي نسجها فنانوهم، وهي لوحات فنيّة وشرائط أفلام أساسا، في حين أنني أختزن في ذهني قصورا واقعية ذات أسوار شاهقة، مشيّدة بأحجار صلبة حقيقية، من طرف رجال أقوياء جدا كالخلفاء والسّلاطين والتّجار.إنّ حريمي يحيل على واقع تاريخيّ، أمّا حريمهم فيستمد قوته من الصّور التي خلقها الرّسامون الذين كانوا يستمتعون بخلق نساء سجينات، ناسجين بذلك رباطا لا مرئيّا بين المتعة والاستعباد"[35]؛ وهو ما يكشف قوّة خاصيّة التّمثيل الغربيّ، في خلق شرق مفارق للواقع، يسكن العقل الذكوريّ الحالم، والذي وجد في التّمثيل ما يروي عطشه؛ إذ التّمثيل "ليس مشروطا بقيام المدركات في حالتي الحضور والغيبة، وإنّما يتعدّاها إلى عوالم التّوهّم والرّؤيا وما يدانيهما".[34]

تستدعي المرنيسي سلطة التّاريخ لتعرية المخيال الغربيّ، عن مفارقته لحقيقة الحريم الشّرقي، وتغييبه لحقائق التّاريخ؛ واستراتيجيّتها في ذلك عقد المقارنات التي كشفت بها عن جذور الحريم في النّظام الاجتماعي الغربيّ

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

والذي يكشف عن سبق حازه الغرب في إقامة هذا الصّرح تعبيرا عن قوّته، وهو البعد الذي يبدو دفينا في المخيال الغربي؛ "فالعرب لم يكونوا آباء الحريم. فقد عُرف الحريم الإمبراطوري في تاريخ المتوسط قبل 700 عام على ظهور الإسلام، لدى الإغريق و الرومان على حد سواء"[35]

لم يكن فرق السّبق وحده، ما يحمل المرنيسي على استدعاء تّاريخ الحريم في الحضارتين الشّرقيّة الإسلاميّة والغربيّة؛ ولكن لبيان التّمايزات بين الحريمين، حيث شكّل طموح الحريم في صورة الجواري، على عهد الخليفة "هارون الرّشيد" سقفا لامس الحضور في المشهد السّياسيّ الأعلى للإمبراطوريّة الإسلاميّة، الأمر الذي لا نعثر عليه في تمثيلات الغرب للمرأة العربيّة، التي اختزلت أدوارها في إشباع حاجات الرّجل الغرائزيّة، وهو ما تقف عليه المرنيسي مبيّنة أنّه "كان بمقدور السبايا الأعجميات في حريم هارون الرشيد إطلاق العنان لطموحهن برؤية ابنهنّ خليفة، ووريثا لعرش أبيه، وحاكما على الإمبراطوريّة الإسلاميّة. أما هذا الأمل فكان محرّما تماما على جارية الإمبراطور الإغريقي أو الروماني "[36]، وليس هذا فحسب بل إنّ تصوير حريم الشّرق، ذلك الحمل الوديع، في هيئة شبقيّة للمرأة العربيّة مسترخيّة، خاملة في غفلة، لا تسترعي الانتباه.

لا يمكن إغفال الدّور الذي لعبته السّرديّة العربيّة القديمة في إثارة المخيال الغربيّ، كما تجلّى في النّص التّخييلي "ألف ليلة وليلة"، الذي احتفي به غربيّا، وسُوِّق مرآة عاكسة اختزلت الشّرق موطن المغامرات الشّبقيّة، حيث كانت ترجمة "بورتون" لـ"الألف ليلة وليلة" حافلة بمقدّمة وهوامش ذات دلالة تومئ إلى طبيعة الشّرق الشّبق والفاسق[37]، ما دفع المرنيسي للكشف عن الانتقائيّة الغربيّة في تعاملها مع الموروث الثّقافيّ العربيّ وعدم موضوعيّة الدّراسات التي أحاطت به؛ ف"ألف ليلة وليلة" بحسب المرنيسي، لم تقتصر على تلك الأبعاد الشّبقية وذلك العالم السّحري البهيج الذي يراود المخيال الغربيّ، بل إنّ فيها تخييلا ينطوي على مشاهد مأساويّة متفاوتة بين الخيانة الزّوجيّة، والكيد، والغدر، أضف إلى ذلك الوضع الحريميّ الذي يرتسم في تضاعيف الحكاية والذي يتمظهر مفارقا لحقيقة ما كان عليه في النّظام الاجتماعيّ الإسلاميّ؛ "فالقوانين الزوجية التي تبتدئ بها (ألف ليلة وليلة) تؤدي إلى وهم آخر يقوّي من بعدها المأساوي، بمعنى أن الحواجز الموضوعة حول الحريم هشّة ويمكن اختراقها ويكفي أن يتنكّر الرّجال في زيّ النساء لكي يمرّوا عبرها آمنين.[38]

تتبّع المرنيسي في كتابها (شهرزاد ترحل إلى الغرب) شخصيّة "شهرزاد" و تُظهر أن أغلب ما قيل وكُتب وأُنتج عنها من كتب، وفنون، وسينما مليء بالمتخيّل الذي لا يربط شخصيّة شهرزاد إلاّ بالمتعة والإغراء حيث تذكر أنها حضرت عرض باليه كانت فيه شخصيّة شهرزاد ترقص باستمرار وقد كانت تنتظر منها الكلام لكنّها لم تفعل،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

"لقد كانت شهرزاد التي تعرض في مدينة برلين مجرّدة من أقوى أسلحتها في الجاذبيّة أي التكلّم، ومن العقل كمصدر للكلام "؛[39] عكس شهرزاد المشرقيّة التي أخذت بلبّ شهريار بواسطة الكلمات وحسن الحكايا فشهرزاد المشرقيّة ذكية وتعتمد على ذكائها لتخليصها من مآزقها، وتتساءل المرنيسي لماذا يختصر الغرب الإغراء في الجسد فقط، فللعقل إغراءاته بمعنى لماذا يلغي الغرب القدرات العقليّة لشهرزاد ويُظهرها امرأة لا تتقن إلا فنون الإغراء الجسدي؛ وتتتبّع المرنيسي في كتابها (شهرزاد ترحل إلى الغرب) حكايات (ألف ليلة وليلة) بداية بتعريفها لهذه القصص فتذكر أنه لا وجود لمعلومات كثيرة حولها "باستثناء أن القصّاص كانوا يروونها باللّغة العربيّة للترفيه عن المارة في بغداد خلال العصر الوسيط، رغم أن أصلها يعود إلى الهند وبلاد فارس"[40]

لقد حاولت المرنيسي تتبّع خيوط تيمة الحريم في الذّهنيّة الغربيّة، حيث يبعث هذا التّراث المتخيّل على كشف تورّط متحامل على المرأة؛ التي صوّرت عاجزة، صامتة تأبى الحركة، هادئة بطريقة تبعث على الغرابة، ما حرّك في المرنيسي فضولا أصبحت من خلاله "مهووسة بحلّ هذا اللغز، وهو سلبية النساء في المخيال الغربي، كما عكسه بعض الفنانين، والهدوء الغريب الذي يوحي به الحريم لديهم".[41]

ولا تزال المرنيسي مذهولة بما يصدر عن المخيال الاستشراقيّ من تنميطات سلبيّة عن المرأة العربيّة؛ التي طالت حتّى شعور المرأة الغربيّة، التي تستفهم المرنيسي عن موقفها من هذه الاستيهامات التي تطاول ذاتا نسويّة مشتركة إذ كيف يمكن للسّيد "انجر" وهو المواطن الفخور في الجمهورية الفرنسية التي أدانت العبودية يتصرف لكي يجعل زوجته الشّرعيّة التي أقسم لها يمين الوفاء أمام القسيس في زواج مسيحي بحق، ولكي يجعلها تتعايش مع حشد من الوصيفات التّركيات الجميلات اللائي كان يرسمهن ويستعرضهن أمامها دون توقف؟ هل كانت زوجته تغار عندما ينحني السّاعات على ظهر "الوصيفة الكبرى؟"[42]

يبدو اهتمام الفنّ الاستشراقيّ بتيمة "المحظيّة"، وترميزها شاهدا على تاريخ الإمبراطوريّة العثمانيّة، مدعاة للبحث، والحفر في السّياقات التّاريخيّة التي يكون الوعي الغربيّ قد أدرجها ضمن حساباته، وهو ينسج تمثيليّة "الحريم الإمبراطوري"، هذا ماحاولت "المرنيسي" تقصّيه في كتابها "هل أنتم محصّنون ضد الحريم؟" فبعد أن تشير للمعاني اللّغوية لكلمة "جارية"، و"محظية" تطرح سؤالا مفاده لماذا رسم الفنانون الأوروبيون "محظيات"، ولم يرسموا "جواري"؟ " لأن الحريم الذي ألهب مخيّلتهم لم يكن حريم العرب أيام الخليفة هارون الرشيد، بل حريم السلاطين العثمانيين الذين بسطوا سيطرتهم على أوروبا، وأرهبوا عواصمها منذ سقوط القسطنطينية عام 1453 حتى أوائل القرن العشرين"[43]؛ بمعنى أن ما يقوم به فنانو الغرب من رسم للمحظيات التركيات هو أشبه بعملية ثأريّة من

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

الإمبراطورية العثمانية التي تمثّل للأوربيين استعمارا قديما وكأنّهم يرومون بفعلهم هذا ردّ الاعتبار لأنفسهم وفرض سيطرتهم على الشّرق باستعباد نسائه في لوحاتهم، وإظهارهنّ في صورة منافية لحقيقتهن، لتصبح العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر تشبه إلى حدّ كبير علاقة الرجل بالمرأة، ويستلزم بهذا الطرح أن تكون" العلاقة بين الشرق والغرب هي بالضرورة علاقة مجنّسة لأنّها علاقة قوة وتحدّ، ولأنّ كلا الطرفين الدّاخلين فيها يتصوّرها علاقة فعل وانفعال، وإيجاب وسلب"[44] وكذا علاقة خضوع، وسيطرة بين الغرب الذّكوري والشّرق الأنثوي في منظورهم والذي اختزلته التصورات الاستشراقية في المرأة الحريم .

تفتح المرنيسي جدليّة المقارنة من بوابة الفلسفة الغربيّة لاستقصاء المرجعيّات التي تمظهر بها الحريم في أدبيّات الغرب، ومن تلك المرجعيّات التي استوقفت المرنيسي متأمّلة، تصوّر كانط لحدود المعرفة التي ينبغي لكلّ امرأة أن تتحصّل عليها، يقول: "من المفيد أن تتمكن النساء من الاستمتاع بالنظر إلى خريطة العالم أو للأجزاء المهمة منه وليس من المهم بتاتا أن يعرفن تفريعات البلدان وصناعتها وحكمها وقوتها..."، قلت في نفسي وأنا أقرأ ذلك: "أليس من الغريب بأن المستبدين في الشرق خلال القرون الوسطى كهارون الرشيد كانوا يبحثون عن الجواري العالمات، في حين أن الفلاسفة الغربيين ككانط كانوا يحلمون بنساء جاهلات في أوروبا خلال عصر الأنوار؟"[45]

تتساءل المرنيسي عن منبع استيهامات الفنّ الاستشراقيّ المتمثّل في الرّسومات التي أقامها المخيال الغربيّ لحريم الشّرق، والتي تبدو مفارقة ليس للواقع الشّرقي فقط، بل وحتّى للفنّ الإسلامي الذي تمثّل الأنثويّ بصورة مغايرة عن التي عرض بها في رسومات الغرب، وليست فرضيّة استقاء هؤلاء الفنّانين تلك الاستيهامات من مصادر غربيّة بمستبعد، هذه المصادر نفسها يبدو أنّها لم تسلم هي كذلك من الانتقائيّة، ومن توهّم المخيال الفنّي لدى "إنغر Jean-Auguste-Dominique Ingres " في لوحة له عن حمامات الشّرق، يبدو أنّه استقى مضامينها مشوّهة من رسائل سيّدة إنجليزيّة تدعى"ليدي"؛ تقول في ذلك "لين ثورنتون": "بينما كان إنغر يستعدّ لرسم لوحته، قرأ ونسخ التّرجمة الفرنسيّة لرسائل "الليدي ماري مونتاغيو Lady Mary Wortley Montagu . وبالرّغم من أن هذه السّيدة تشدّد على عدم وجود أي تصرّف مناف للحشمة واللّياقات بين المستحمّات، يبدو أنّ الفنان قد تغاضى عن هذه الملاحظة".[46] فهل يعكس هذا التّغاضي إصرارا ذكوريّا غربيّا على إنتاج الحريم، وفق أنموذج يختزل المرأة غرضا شبقيّا؟ بحسب المرنيسي يمكن"لهذه الصّورة التي صنعها الرجل هي التي ستملي على المرأة الواقعيّة نموذج الأنوثة الذي عليها أن تقارن نفسها به على الدّوام.[47]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

تسوق المرنيسي بمقابل هذه السّلطة التّمثيليّة الغربيّة تساؤلات حول الفنّ الإسلامي، وتعاطيه مع الحريم؛ الذي يتمظهر في أعمال الرسّامين الإسلاميين، حريما عفيفا محتشما، بعيدا عن الاستيهامات الاستشراقيّة الشبقيّة؛ "فنجد أوّلا بأن نساء الحريم أبعد ما يكن عن الشّهوانية والفراغ والعري كما تصورهن في الغرب أعمال "ماتيس Henri Matisse " و"أنجر" أو "بيكاسو Pablo Ruiz Picasso ". إنهن على العكس من ذلك بالغات النشاط ومرتديات ثيابهن لكي لا نقول بأنهن مغلفات بها".[48]

لقد استثمر الوعي الغربيّ في استراتيجيّات عديدة طبعت تمثيلاته للشّرق، منها تبنّيه اللّغة النّسويّة، ومحاولة التّماهي معها، بتصوير المرأة الشّرقيّة سجينة الرجل الشّرقيّ الذّكوريّ، ومن ثمّ هي في حاجة للرّجل الأبيض كي يعتقها من سجنها الشّرقيّ، نحو فضاء التّحرّر الغربيّ، وهو ما أفردت له "المرنيسي" فصلا بعنوان "حدود حريمي" في مؤلّفها "أحلام النّساء الحريم" أين تبدو محتفية بهذا الحريم الذي نشأت وتربت فيه "ولدت سنة 1940 في أحد أحاريم مدينة فاس"[49]؛ ومن ثمّة تعمل المرنيسي على تقويض الاستراتيجيّة الغربيّة؛ حيث تصوّر المرنيسي حريم فاس كجماعة متخيّلة تعيد إنتاج الأمّة، وهو نموذج مصغّر للعالم الاجتماعي السّياسي الكبير في الخارج. يردّد الاختلاف بين النّساء حول قيمة التّاريخ... أضف إلى ذلك أنّ تصوّراتهنّ حيال مسألة الحريم ذاتها مختلفة...فإنّ اللالا راضية، على سبيل المثال، تتمسك بقوة، بالحريم، وتراه كـ"شيء رائع"، حيث تشعر النّسوة فيه بالحظوة والحماية[50]

تلفت المرنيسي لقضيّة شديدة الأهميّة، تعيد من خلالها تعريف الحريم من خلال "حريم فاس"، وذلك من خلال الجدل الدّائر بين النّسوة، ورؤيتهنّ للمشهد الحريمي، في فاعليّة وديناميكيّة تعكس صورة مغايرة للتي نمّطها بها الغرب؛ حيث المرأة الشّبقيّة المسترخيّة، الصامتة، الهادئة، إنّها سلبيّة مطلقة.

5/ الحريم المعكوس/ تأنيث الغرب:

لقد صوّرت العلاقات شرق /غرب دائما ضمن ثنائيّة الذّكورة/ الأنوثة، وهو التّصوير الشّبقي الذي يبعث على التّساؤل حول هذا الوعي الغربيّ الذي تجاوز حدود الفهم الطّبيعيّ الذي يستسيغ العلاقة بين الرّجل والمرأة، فيما لا يستوعب توصيف العلاقات الحضاريّة، بمنطق شهوانيّ؛ ومن جملة ذلك نجد "جيرار دو نيرفال Gérard de Nerval " في كتابه" رحلات إلى الشرق" تمثّل الشّرق في صورة أنثى أسطوريّة.[51]

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

ولأنّ الكولونياليّة تستتبع بطبيعتها انفلاتا في المشاعر الجنسيّة، بحكم الاستباحة التي تمارس على الشّعوب المستعمرة فقد عرفت ثنائية الرّجولة والأنوثة ازدهارا عظيما في عصر الفتح والاستعمار والعنصريّة. ففضائل الرّجولة لم يتغنّ بها أحد كما تغنّى الأدب الأوروبي الكولونيالي، أدب البعثات والحملات، والاستكشافات، والفتوحات.[52]

يبدو اهتمام الفنّ الاستشراقيّ بتيمة "المحظيّة"، وترميزها شاهدا على تاريخ الإمبراطوريّة العثمانيّة، مدعاة للبحث، والحفر في السّياقات التّاريخيّة التي يكون الوعي الغربيّ قد أدرجها ضمن حساباته، وهو ينسج تمثيليّة "الحريم الإمبراطوري"، في سياق الصّراع الحضاريّ الذي تمثّله الفنّ الاستشراقيّ في قالب الذّكورة/ الأنوثة هذا ما حاولت "المرنيسي" تقصّيه في كتابها "هل أنتم محصّنون ضد الحريم؟" فبعد أن تشير للمعاني اللّغوية لكلمة "جارية"، و"محظية" تطرح سؤالا مفاده لماذا رسم الفنانون الأوروبيون "محظيات"، ولم يرسموا "جواري"؟ "لأن الحريم الذي ألهب مخيّلتهم لم يكن حريم العرب أيام الخليفة هارون الرشيد، بل حريم السلاطين العثمانيين الذين بسطوا سيطرتهم على أوروبا، وأرهبوا عواصمها منذ سقوط القسطنطينية عام 1453 حتى أوائل القرن العشرين"[53]؛ بمعنى أن ما يقوم به فنانو الغرب من رسم للمحظيات التّركيات هو أشبه بعملية ثأريّة من الإمبراطورية العثمانية التي تمثّل للأوربيين استعمارا قديما، وكأنّهم يرومون بفعلهم هذا ردّ الاعتبار لأنفسهم، وفرض سيطرتهم على الشّرق باستعباد نسائه في لوحاتهم، وإظهارهنّ في صورة منافية لحقيقتهن، فيغدو ذلك ترميزا للعلاقة مُستعمِر/رجل/ مُستعمَر/امرأة، في إيحاء جنسيّ، يعكس النّزوع نحو الرّغبة في تسويق "علاقة فعل وانفعال، وإيجاب وسلب، ومن ثمة سيطرة ورضوخ"[54] .

تستعيد المرنيسي ثنائيّة الذّكورة/ الأنوثة عبر تأنيث الآخر، ووضعه محلّ الحريم الذي تخيّله ضمن تمثيلاته، وتبني مقاربتها ضمن العلاقة الكولونياليّة التي عرفها المغرب خلال الحقبة الاستعماريّة، فتتمثّل المستعمر الفرنسيّ خائفا محبوسا داخل أسوار مدينته، محتميا بسلاحه الذي لا يفارقه، إنّه وضع حريمي بامتياز، أفردت له المرنيسي ضمن مؤلّفها " أحلام النّساء الحريم"، فصلا بعنوان "الحريم الفرنسي"، أعادت من خلاله "إنتاج "حلم تجاوز الحدود" المحبط الذي يراود المستعمرين، موفرا وضع حريميا معكوسا"[55]، كانت قلعته "المدينة الجديدة"، كأنّ المرنيسي تستعيد بها ما سمّي بسراي الحريم"، ذلك الصّرح الذي يتوارى فيه الحريم، كما يتوارى الفرنسيون خلف أسوار مدينتهم التي "كانت– بشكل من الأشكال– بمنزلة حريم لهم كالنّساء تماما في حريمنا؛ لم يكن لديهم حقّ التّجوال بحريّة في "المدينة"[56]، واتّسمت طبائعهم فيها بما يحمل على الجبن، والخوف الذي فارق في لحظة معيّنة تلك الذّكوريّة المستفحلة، المتغنّية بصنوف أنواع البطولات.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

الخاتمة:

اعتمد هذا البحث مقاربة تتبّع الخطاطة الثّقافيّة، والدّلالات المحايثة لتيمة الحريم في كتابات المرنيسي، ابتداءً عبر استقصاء مفهوميّ "التخييل"، و"التّمثيل"، اعتبارا للإحالات المتعدّدة التي يقيمها العمل الإبداعيّ بالمرجعيّة الفكريّة، وقد وقفنا على علّة ذلك مع الرّواية الأوروبيّة الحديثة، وكيف أنتجت ضروبا من السّرد المشبع بالخلفيات الاستعماريّة، وبقيم الشّموليّة والوحدويّة لثقافة المركز المتضخّمة ذكوريّا.

ضمن هذا المعطى الحضاريّ انبثقت حركيّة نسويّة عربيّة، أجادت الاستفادة من لحظتها التّاريخيّة بالإفادة من دراسات التّابع النّازعة إلى تقويض مركزية العقل الذكوري، ومراجعة الثّقافة الاجتماعيّة التي أنتجته؛ ومن ثمّة مساءلة التّمثيل الاستشراقيّ، بإعادة تعريف المرأة الشّرقيّة، كما تشكّلت في الواقع، لا كما توهّمها المخيال الغربي، واستلهمها ضرورة وغرضا شبقيّا.

وكان تبعا لذلك فهم منطق اشتغال ديناميّة الحريم لدى المرنيسي، يتطلب تحديد معناه ضمن السّياق الكولونياليّ، وضمن لازمة التدافع الحضاريّ بين الشّرق والغرب، وهو ما فهمته المرنيسي، فراحت تعيد تعرف "الحريم" كما استقرّ في الشّرق من خلال الحفريات التي قامت بها على امتداد أعمالها، ومن خلال المقارنات التي عقدتها حول حريم الشّرق والغرب، وتوظيفها وضعا حريميا معكوسا، بإقامة ثنائيّات الذكر/ الشّرق، الأنثى/ الغرب، ومن ثم بحث الدّلالات التي اكتسبها الحريم عند الغرب، ودور الحمولة الفلسفيّة والكنسيّة في صوغ الوعي الغربيّ، الحالم بوضع حريمي مستحيل شرقا.

الهوامـــــش:

1. بوال، محمّد: من المخيّلة إلى المخيال دراسة في تاريخ المفهوم، مجلّة الواحات للبحوث والدّراسات، العدد 13 ،المركز الجامعي، غرداية، الجزائر، 2011، ص (102-123)، ص 102 مستخرج يوم: 2017/02/16 من موقع:
http://elwahat.univ-ghardaia.dz
2. المرجع نفسه، ص 106.
3. فائزي، توفيق: التّصديق والتّخييل في القول التّاريخيّ، مجلّة يتفكّرون (فصليّة، فكرية، ثقافيّة)، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدّراسات والأبحاث، العدد الثالث، شتاء 2014، ص 118.
4. بوال، محمد: من المخيّلة إلى المخيّال، ص 109.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

5. كاظم، نادر: تمثيلات الآخر (صورة السّود في المتخيّل العربيّ الوسيط)، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان ط1، 2004، ص 33.
6. ساردان،ضياء الدّين: الاستشراق (صورة الشرق في الآداب والمعرف الغربية)، تر: فخري صالح، مر: أحمد خريس، هيئة أبو ظبي للسّياحة والثّقافة (مشروع كلمة)، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2012، ص 26.
7. الخضراوي، إدريس: الأدب موضوعا للدّراسات الأدبيّة، مجلّة تبيُّن للدّراسات الفكرية والثقافيّة (فصليّة)، المجلّد الثّاني، المركز العربي للأبحاث ودراسات السّياسات، العدد7، شتاء 2014، ص 116.
8. المرجع نفسه، ص116.
9. إبراهيم، عبد الله: السّرديّة العربيّة الحديثة (تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النّشأة)، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، ط1، 2013، ص 16.
10. إبراهيم عبد الله: المطابقة والاختلاف (بحث في نقد المركزيات الثّقافيّة)، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ص 600. مستخرج يوم: 2017/02/11 من موقع: https://books.google.dz
11. إبراهيم، عبد الله: التّخيّل التّاريخي والتّمثيل الاستعماريّ للعالم، مجلّة يتفكّرون (فصليّة، فكرية، ثقافيّة)، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدّراسات والأبحاث، العدد الثالث، شتاء 2014، ص 58.
12. المرجع السابق، ص 599.
13. إبراهيم، عبد الله: السّرديّة العربيّة الحديثة، ص 19.
14. الشيخ، ممدوح: الاستشراق الجنسي(الحرب على النقاب)، دار ابن رشد، القاهرة، ط2، 2015، ص 37.
15. المرجع نفسه، ص 42-43.
16. الموسوي، محسن جاسم: الكتابة العربيّة في عالم متغيّر (واقعها، سياقاتها، وبناها الشّعوريّة)، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 145-146.
17. الشّيخ، ممدوح، الاستشراق الجنسي، ص 88.
18. فرج، نورة: إرتباكات الهويّة (أسئلة الهويّة والاستشراق في الرّواية العربيّة-الفرنكفونيّة)، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء المغرب، ط1، 2007، ص 25.
19. بعلي، حفناوي: مدخل في نظريّة النّقد النّسويّ وما بعد النّسويّة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009، ص227.
20. إبراهيم، عبد الله: المحاورات السّرديّة، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، لبنان، 2012، ص 60.
21. إبراهيم، عبد الله: موسوعة السرد العربي، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، لبنان، ط2 (موسعة)، 2008، ص 248.
22. بعلي، حفناوي: مدخل في نظريّة النّقد النّسوي وما بعد النّسويّة، ص 227.
23. العيد، يمنى: الرّواية العربيّة (المتخيّل وبنيته الفنيّة)، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص 112.
24. المرجع نفسه، ص146.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

25.إدوارد، سعيد: الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق،تر محمد عناني، رؤية للنشر و التوزيع، ط1، 2006، ص396.
26.صالح، صلاح: سرد الآخر (الأنا والآخر عبر اللغة السّرديّة)، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص 137–138.
27.ساردان، ضياء الدّين: الاستشراق، ص 36.
28.الشّيخ، ممدوح: الاستشراق الجنسي، ص 63.
29.إبراهيم، عبد الله: المحاورات السّرديّة، ص 62.
30.إبراهيم، عبد الله:موسوعة السّرد العربيّ، ص 250–251.
31.المرجع نفسه، ص 286.
32.المرنيسي، فاطمة: شهرزاد ترحل إلى الغرب، تر: فاطمة الزهراء أزرويل، المركز الثّقافي العربي،دط، دت، ص 21.. مستخرج يوم: 2017/02/05 من موقع:www.books4arab.com
33.المرجع نفسه، ص 27.
34.الخضراوي، إدريس: الأدب موضوعا للدّراسات الأدبيّة، ص 116.
35.المرنيسي، فاطمة: هل أنتم محصّنون ضدّ الحريم، تر: نهلة بيضون، المركز الثّقافي العربي، دط، دت، ص 93. مستخرج يوم: 2017/02/05 من موقع: www.books4arab.com
36.المرجع نفسه، ص 78.
37.فرج، نورة: إرتباكات الهويّة، ص 27.
38.المرنيسي، فاطمة: شهرزاد ترحل إلى الغرب، ص 63–64.
39.المرجع نفسه، ص 61.
40.المرجع نفسه، ص 40.
41.المرجع نفسه، ص 155.
42.المرنيسي، فاطمة: هل أنتم محصّنون ضدّ الحريم، ص 8.
43.طرابيشي، جورج: شرق وغرب رجولة أنوثة– دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرّواية العربيّة–، دار الطليعة للطباعة والنّشر، بيروت، ط1، 1997، ص 8.
44.المرنيسي، فاطمة: شهرزاد ترحل إلى الغرب، ص 111–112.
45.المرنيسي، فاطمة: هل أنتم محصّنون ضدّ الحريم، ص 176–177.
46.المرجع السّابق، ص 131–132.
47.المرنيسي، فاطمة: شهرزاد ترحل إلى الغرب، ص 31.
48.المرنيسي، فاطمة: أحلام النّساء الحريم، تر: سريّ، ميساء، دار ورد للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1997، ص 11.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165

49. أحميد، مغراوي إدريس، وآخرون: مابعد الاستعمار والقوميّة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، لبنان، ط1، 2014، ص 125.

50. الشّيخ، ممدوح: الاستشراق الجنسي، ص 45.

51. طرابيشي، جورج: شرق وغرب رجولة أنوثة، ص 8.

52. المرنيسي، فاطمة: هل أنتم محصّنون ضدّ الحريم، ص 8.

53. المرجع السّابق، ص 8.

54. أحميد، مغراوي إدريس، وآخرون: مابعد الاستعمار والقوميّة في المغرب العربي، ص126

55. المرنيسي، فاطمة: أحلام النّساء الحريم.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/1165